حبٌّ بلا حدود

المهندس عبدالعزيز بن عبدالرحمن الحصين
أمين المدينة المنورة

المدينة المنورة اختصها الله منذ الأزل باحتضان رسالة الإسلام ورسولها ﷺ، وقد ورد في الصحف الأولى وصف المدينة التي يظهر فيها النبي المنتظر، وقد تسابق اليهود للاستيطان في المدينة وخيبر وفدك؛ لأنها تشتمل على الأوصاف المذكورة في كتبهم أملاً في أن يكون النبي المنتظر منهم، ونسوا دعوة إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام لذريته الذين تركهم بواد غير ذي زرع عند بيته المحرم: ﴿**رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ**﴾(١)، فلا بد أن يكون النبي المنتظر من نسل إسماعيل عليه السلام.

وبعد أن ظهر الإسلام كانت المدينة المنورة قلب الحكم الإسلامي النابض وعاصمته الأولى، وبعد أن انتقلت الخلافة خارج المدينة المنورة ظلت محط اهتمام الخلافات الإسلامية والحكومات بالرعاية والعمارة والبناء والتنمية، فتسابق الخلفاء والملوك والأمراء لخدمتها والإحسان إلى أهلها، وتفاوت هذا الاهتمام من زمن إلى زمن. ولكن المدينة لا تنسى من يحسن إليها وإلى أهلها؛ ولذلك تزخر كتب التاريخ بتلك السير تسجل ما قاموا به من إنجازات صغيرة وكبيرة، وخاصة عمارة المسجد النبوي الشريف؛ فالخلفاء الراشدون الثلاثة الأول كان لهم توسعات للمسجد، وأهم عمارة له كانت عمارة عثمان بن عفان رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

---

(١) سورة البقرة، الآية رقم ١٢٩.

والدولة الأموية كان أبرز أعمالها جلب الماء في عهد مروان بن الحكم، وإعادة عمارة المسجد في عهد الوليد بن عبدالملك، والدولة العباسية أعادت عمارة المسجد النبوي الشريف بعد حريق شب فيه في عهد الخليفة العباسي المعتصم بالله، والدولة المملوكية كان أهم أعمالها عمارة المسجد مرتين في عهد السلطان قايتباي آخرها عام ٦٨٨هـ، والدولة العثمانية أعادت أيضًا إعمار المسجد النبوي في عهد السلطان عبدالمجيد عام ١٢٦٨هـ.

وبعد دخول المدينة المنورة تحت الراية السعودية الخضراء التي تحمل كلمة التوحيد حظيت باهتمام كبير من جميع الملوك؛ من الملك عبدالعزيز - يرحمه الله - الذي بدأ أول توسعة سعودية للمسجد، أتمها الملك سعود عام ١٣٧٥هـ، ثم الملك فيصل الذي نزع الملكيات من الناحية الغربية وجهزها بالمظلات للصلاة فيها، ثم الملك خالد الذي نزع ملكيات الحي الجنوبي الغربي لمواقف السيارات.

ثم جاء دور الملك فهد بن عبدالعزيز - يحفظه الله - الذي كانت له قصة حبّ طويلة مع المدينة المنورة بدأت في زيارته الأولى عام ١٤٠٣هـ، وتفقد خلالها أحوال المدينة المنورة، فوجدها مدينةً هادئة حالمة؛ فالبيوت ذات الطراز العربي في العمارة تحيط بالمسجد من كل جانب حتى تكاد تخفيه، والحرات الصعبة التضاريس تطوق المدينة من كل جهة، فتحد من نموها الأفقي، والمسجد النبوي الشريف أصبح يغص بالمصلين، ولا يتوافر سكن مناسب لزوار المسجد، والمآثر التاريخية مثل مسجد قباء والمساجد الأثرية الأخرى وموقع غزوة أحد وغزوة الخندق لا تجد الاهتمام الكافي من المرافق والخدمات لاستيعاب الزوار.

أما في مجال العناية بالقرآن والسنة؛ فقد وضع حجر الأساس لمجمع الملك فهد لطباعة المصحف الشريف عام ١٤٠٣هـ، وهو صرحٌ إسلامي كبير، وليس فقط مطبعة للمصحف، ولكنه مركز أبحاث

ضخم لخدمة الكتاب والسنة يعمل فيه أكثر من (١٧٠٠) شخص من الباحثين والعاملين والإداريين والفنيين، ويقوم بطباعة المصحَف بالروايات السبع المشهورة، وتسجيل التلاوات على أشرطةٍ سمعية عالية الدقة، وترجمة معاني القرآن الكريم؛ حيث تجاوز عدد الترجمات الخمسين، والعناية بعلوم القرآن، والعناية بالسنة والسيرة النبوية وتأمين احتياجات العالم الإسلامي من نسخ القرآن الكريم، حيث تم توزيع أكثر من (١٦٥) مليون نسخة من إنتاجه وصلت إلى كل مكان على وجه الأرض، وأصبح المسلمون يطلبونها بشغفٍ في كل مكانٍ لجودتها ودقتها.

ومنذ الزيارة الأولى اتخذ قرارًا تاريخيًا سيظل محفورًا في ذاكرة المدينة المنورة؛ لقد قرر أن يجعل المدينة المنورة في مصاف المدن المتقدمة تنظيمًا وتخطيطًا وعمارة ووفرة في المرافق والخدمات، هذا ما قاله في خطاب الزيارة السنوية.

وبالفعل بدأ أولاً بتوسعة المسجد النبوي حيث وضع حجر الأساس عام ١٤٠٥هـ، ولم يكن أحد يتصور مقدار التوسعة ولكن مع توالي أعمال البناء ظهرت المساحة الشاسعة للعمارة؛ لقد كانت مساحة المسجد (١٦٥٠٠م٢) فأصبحت (٨٢,٥٥٠م٢)، بإضافة ما يزيد على (٦٦٠٠٠م٢) إلى مساحة المسجد، عدا مساحة السطح التي تستوعب ٩٠ ألف مصلّ.

أما مساحة الساحات فبلغت (٢٥٠,٠٠٠م٢) تتسع لـ(٤٠٠) ألف مصلّ، ونفِّذت تحتها دورات المياه ومواقف السيارات التي تستوعب (٤٤٠٠) سيارة، ولقد رأيته - أطال الله في عمره - يتفقد المشروع، ويشرف بنفسه على اختيار أنواع الرخام والجرانيت، ويوجه بتعديلات مهمة في أساليب البناء؛ حيث أضاف مشروع التكييف وأصر على تنفيذه على رغم تأكيد الخبراء والمهندسين على صعوبته وارتفاع تكاليفه.

وعندما بدأ بناء المسجد بالارتفاع وجه في أحد اجتماعات اللجنة الوزارية التي يرأسها لتطوير المدينة المنورة بتطوير المناطق المحيطة بالمسجد لاستقبال الزوار وتوفير السكن المناسب والمريح، وقال : ليس من المعقول أن يحيط بالمسجد مبانٍ متهالكة لا توفر سكنًا ملائمًا لزوار مسجد رسول الله ﷺ.

وبالفعل أمر بإعداد المخطط التطويري وبعد أن اعتمده أمر بتشكيل اللجنة التنفيذية لتطوير المنطقة المركزية لتشرف على تنفيذ المخطط، فانطلقت أعمال الهدم في المنطقة المركزية عام ١٤١٠هـ وتلا الهدم مباشرةً الشروع في إقامة مبان على أحدث وأعلى مستوى لتوفير سكن ملائم، وها هي اليوم خير شاهد.

لقد كانت الظروف المالية للدولة بالغة الصعوبة في ذلك الوقت، ولكنه - يحفظه الله - لم يكن يبالي بذلك؛ إنه بُعد نظره والإيمان بأن استثماره هذا خير استثمار، ولذلك لم يأبه للمعارضين.

لقد كانت الميزانية للمنطقة المركزية التي أقرتها اللجنة الوزارية برئاسة خادم الحرمين الشريفين تبلغ أكثر من ستة بلايين ريال لنزع الملكيات وتنفيذ أنفاق الخدمات والمرافق والطرق والإنارة، واعتمدت جميعها في محضر واحد وفي ميزانية واحدة.

كانت الميزانية للمنطقة المركزية تبلغ أكثر من ستة بلايين ريال واعتمدت جميعها في محضر واحد وفي ميزانية واحدة

"أتقدم بالشكر إلى خادم الحرمين الشريفين الملك فهد على التسهيلات والراحة التي لقيناها بالمدينة المنورة". هذه رسالة إلكترونية من العديد من الرسائل، تلقتها الأمانة على موقعها بالإنترنت من زائر مسلم مصري الجنسية.

وكلما اقتربت من المسجد النبوي الشريف تلحظ الزوار يتجولون بساحات المسجد ومعهم آلات التصوير الفوتوغرافي والفيديو يتأملون الإنجازات العملاقة، وفي داخل المسجد تتعلق عيون الزوار بروعة

العمارة وزخرفة القباب المتحركة، وينعمون بالجو البارد المكيف، ويشربون من ماء زمزم المتوافر في جنبات المسجد، ويتلون القرآن في مصاحف غاية في جمال الطباعة والتغليف، من إنتاج مطبعة خادم الحرمين الشريفين بالمدينة المنورة.

إنها وقفات عفوية معبرة صادقة، تنبع من قلوب المسلمين تقديرًا لما يقدم من عناية ورعاية وتسهيل وطمأنينة.

في شهر الحج عام ١٤٠٨هـ كانت أزمة المياه خانقة في المدينة المنورة، وأعلنت مصلحة المياه في الصحف عن نوبات توزيع المياه، وقد اهتم - يحفظه الله - بالأمر وحادث صاحب السمو الملكي الأمير عبدالمجيد أمير منطقة المدينة المنورة آنذاك لإيجاد حل سريع، وأرسل على الفور وزير الشؤون البلدية والقروية ووزير الزراعة، فوصلا في اليوم التالي واجتمعا مع سمو الأمير، ونتج عن ذلك المرحلة الثانية لتحلية المياه التي جاءت أيضًا في ظروف مالية صعبة للدولة.

أما الطرق والأنفاق والجسور فحدث ولا حرج، ويوم زار المدينة المنورة عام ١٤٠٣هـ لم يكن هنالك ما يذكر في المدينة من الشوارع أو الطرق، فشكلت اللجنة الوزارية برئاسته، وكلفت مؤسسة ابن لادن بالعمل فورًا في طريق الملك عبدالعزيز وطريق أبي بكر الصديق، ثم توالت الطرق : الدائري الثاني، وطريق السلام، وطريق الجامعات، وطريق الملك فهد، وطريق الهجرة.

لقد تطورت المدينة المنورة في عهده - يحفظه الله - بما لا يمكن وصفه، ولكن المؤشرات الآتية يمكن أن توضح :

- عدد السكان عام ١٤٠٣هـ كان (٣٥٠ ألف نسمة).
- عدد السكان عام ١٤٢٢هـ كان (مليون نسمة).
- المساحة المبنية عام ١٤٠٣هـ (٥٠٠٠ هكتار).
- المساحة المبنية عام ١٤٢٢هـ (٢٢٠٠٠ هكتار).

سيبقى الملك فهد في ذاكرة أهل المدينة المنورة ما حيوا؛ رمزًا للحب والخير والعطاء، وسيحفر في ذاكرة الزمن خبرٌ تتناقله الأجيال التالية في المدينة المنورة وفي العالم الإسلامي وفي الدنيا قاطبة : ملك أحب عاصمة الإسلام الأولى لإيمانه بعقيدته وتقربه إلى الله تعالى، فمنحها الحب بلا حدود، وجعلها عاصمة البلاد، وفي كل مرة يزورها يعقد فيها مجلس الوزراء وتفد إليه الوفود من كل بلاد الدنيا، وتنطلق منها الأحداث إلى كل مكان. فمن فعل هذا قبلك؟